في الطائرة

للأستاذ نجاتي صدقي

كان المسافر من فلسطين إلى سوريا في الزمن الغابر يشعر بأنه مقدم على رحلة محفوفة بالمغامرات والمخاطر ، فيقطع المسافة الطويلة إلى عكاء بالدلجانس ، ثم يستقل حماراً ويجتاز به معبر الناقورة ... ثم يتابع السفر بدلجانس آخر .

وكان ممر الناقورة هذا طريقاً جبلياً ضيقاً ، يقوم على أحد جانبيه جبل شاهق ، وتتراءى على الجانب الآخر هوة سحيقة تنتهي إلى صخور مسننة يداعبها البحر الأزرق العميق مداعبة هادئة ، فإذا ما نظر إليها المسافر الراكب شاعت في نفسه موجة من الهلع ، وفضل اجتياز الممر سيراً على قدميه ... أو زحفاً على أربعته .

ثم يصل المسافر المدينة التي يقصدها ، ويقص على أهله وذويه ما لاقاه من أهوال أثناء رحلته الشاقة ... ولا يغرب بالله طبعاً عن أن يروي لهم وقائعه مع قطاع الطرق ، وفتكه ليلا بالضباع التي ينبعث الشر من أعينها ، وبطشه نهاراً بالذئاب الجائعة ذات الأنياب الحادة والمخالب الجارحة .

هكذا كانت مشاق الأسفار في الأيام الغابرة ، أما مشاقها في أيامنا هذه فاليك ما حدث لي في الطائرة :

كنت مرة مسافراً في الطائرة من اللد إلى حلب ، وكان الفصل شتاء ، وكانت الطائرة تقل شخصين فقط هما أنا وتاجر أغنام يدعى أبا محمود ، وهو رجل في حدود الخمسين ، طيب القلب ، يلبس القمباز ، ولا ينفك عن مداعبة حبات سبحته العقيقية .

وبعد أن قطعنا مسافة في الطائرة حدث ما أثار دهشتي ... رأيت تاجر الأغنام وقد انكمش على نفسه ، ممتقع اللون ، زائغ البصر ، فاغر الفم ، مشنج اليدين .. فدنوت منه وسألته : ما بالك يا رفيق الطريق ؟...

فأجابني بصوت بكاء : أريد النزول ! ...

قلت : هذه طائرة وليست سيارة ، ولن تتمكن من النزول

عنيبة ليست خارج الحدود ، ولكنه نظر إليه شذراً في شيء من التعالم المقيت ، فلم يجد الزميل بدا من الرضوخ لما أراد ، وقدم الطلب المراد ، وأخذ مجراه ، وانتقل من مكتب إلى مكتب ، دون أن يفطن أحد إلى هذا الخطأ ، حتى وصل إلى يد أحد الرؤساء بالوزارة ، وكان رجلا ذكياً يعرف الكثير عن عنيبة ، فأمسك بالطلب ، وأطال النظر فيه ، وبدا الاستياء على وجهه ، ثم نادى الموظف الذي أشار به ، وافهمه حقيقة الأمر ، واتحفه بقسط كبير من اللوم والتعنيف ، فما يجدر بموظف أن يجهل حقيقة عمله ، وإن جهل حقيقة بلاده !

وأرمنا بلدة في بلاد النوبة بين توشكى وأبي سمبل ، وحدث أن أرسل إليها أحد موظفي وزارة الصحة بعض الأوراق ، الخاصة بطبيب المركز أي مركز عنيبة ، بيد أن هذا الموظف كتب على الظرف (السودان) فذهبت الأوراق إلى السودان ، ثم ردت إلى الوزارة مرة أخرى بعد ما كتب عليها موظف الحكومة السودانية أن هذه البلدة ليست في السودان وإنما هي في منطقة النوبة التابعة للحكومة المصرية واتبع هذه العبارة بمجموعة من علامات التعجب والاستفهام ، التي معناها أننا معشر المصريين لا نعرف بلادنا » .

هذه الأخطاء التي أسميها أخطاء وطنية ، تقع في شتى الوزارات ، وتختلف دور الحكومة كل عام ، وهي إن أحزنت الوطني الغيور ، فإنما يطرب لها المستعمر الناصب ... لأنه يرضيه أن يرى كل مصري منصرفاً عن خير بلاده ، ومصلحة أمته إلى لذاذاته ومسراته ، ويسره جهل الموظفين بما لا يصح أن يجهلوه ويزيد في سعادته أن يرى القلق بادياً في وجوه الموظفين في بلاد النوبة ، ولهذا يتألم الإنجليز لعمران هذه المنطقة بالغ الألم ، ويسوءهم أن تتجه الحكومة المصرية بالإصلاحات الشاملة في هذه البلاد ، وبخاصة في هذه الأيام ، لأن إصلاح منطقة النوبة يصل ما بين مصر والسودان برباط وثيق ، ويقرب هذه الشقة التي عمل الانجليز على اتساعها ، ولكن الله سيحبط مساعيهم حينما نخاطبهم باللغة التي يفهمونها ، وإن غداً لناظره قريب .

عبد الحفيظ أبو السعود

إلا في مطار حلب ... الأول مرة تصعد في الجو ؟ .

قال : نعم ... لأول مرة يالشقائي .

قلت : لا تخف ، فبعد ساعتين سنصل إلى حلب ... أنظر إلى أسفل ، ها نحن نجتاز رأس الناقورة ... فتطلع تاجر الأغنام من النافذة ... وحدث في هذه البرهة أن هبطت الطائرة في فجوة هوائية ، فانتفض رفيق ، واسترخى على مقعده ، وراح يؤنب نفسه قائلاً : « أجننت يا أبا محمود ... ما لك وركوب الطائرة - سافر في السيارة ... أو في الدلجانس ... الله يرحم أيام الدلجانس ... أو على حمار ... أو مشياً على قدميك ... ولكنك تريد السرعة ، والآن ستكلفك هذه السرعة حياتك ... يا لك من شقي جاهل يا أبا محمود » ... (وأخذ يبكي) .

ولما دخلت طائرتنا وسط غيوم كثيفة رفع تاجر الأغنام ناظريه إلي وقال : أين نحن الآن ؟ ..

قلت : وسط الغيوم .

قال : في السماء ؟ .

قلت : نعم .

قال : في أي سماء ؟ !

قلت : اجتزنا السادسة وعلى وشك الدخول في السابعة !

فصرخ بأعلى صوته : الله أكبر ... الله أكبر ... الله أكبر ! ...

ثم ارتجت الطائرة فجأة ومالت إلى اليمين ، ثم انحرفت إلى اليسار ... ثم هوت في فجوة هوائية بعنف ... فشددت الحزام على وسطي ... أما تاجر الأغنام فكان يتمتم قائلاً : اللهم اغفر لنا ذنوبنا ، ولا تجازينا إن أسأنا أو أخطأنا ، اللهم ادخلنا في زمرة عبادك الصالحين ، آمين يا أرحم الراحمين .

ثم التفت إلي وقال : أبنائي أمانة في عنقك ! .

قلت : وماذا تعني بذلك ؟ ...

قال : أبنائي ليس لهم من معيل غيري ... أستحلفك بالله أن تتردد عليهم دائماً ، وأن تمد لهم يد المعونة إذا ما احتاجوا لما لا سمح الله ... دعهم يبيعون الأغنام أو يقتسمونها فيما بينهم ... وقل لأم محمود بأن تكرس حياتها في تربية أولادها ... آه إني أشعر بدنو الأجل ! ...

قلت : ولكن إذا أصيبت الطائرة بكارثة فسيقضي علينا معاً !

وارتجت الطائرة ارتجاجاً عنيفاً ، ثم هبت علينا عاصفة مسحوبة بالرعد ، والبرق ، والأمطار ، فخلقت بنا الطائرة عالياً ، وكانت أثناء تحليقها هذا تهوي بين حين وآخر في فجوات جوية . وفي هذه اللحظة أطل علينا عامل الراديو من كوته وناولني ورقة فلم أطلع على مضمونها لاعتقادي أنها تحدثنا عما قطعناه من مسافة وما تبقى منها لنصل إلى حلب ... أما رفيق تاجر الأغنام فكان مستلقياً على مقعده مغمض العينين ، متهدل الشاربين ، مرتخي اليدين .

وهبطت بنا الطائرة في مطار حلب ، وأبو محمود لا يزال يعتبر نفسه في عداد الهالكين ... فهززته قائلاً : إنهض أيها الرجل لقد وصلنا ! .

ففتح عينيه الذاهلتين وقال : أين نحن الآن .

قلت في حلب .

فنزلنا من الطائرة ، وسمعت تاجر الأغنام يقول : هذه هي المرة الأولى والأخيرة بالطائرة ... لقد نجانا الله ! .

فضحكت منه ، ورنت على كتفه ، وافترقنا .

ولما بلغت النزول في حلب ، أخذت أخمص ما في جيبي من أوراق ، فعثرت على ورقة عامل راديو الطائرة التي ناولني إياها ونحن نجتاز الزوبعة .. وقرأت فيها :

« نطير الآن على ارتفاع أربعة عشر ألف قدم .. لقد تعطل أحد محركي الطائرة ! نجتاز زوبعة عنيفة . شد الحزام على وسطك إذ ربما نضطر إلى الهبوط في أي مكان ! . »

والحق يقال إني ما كدت أنتهي من قراءة هذه الورقة حتى أحسست بقشعريرة تنتابني من قمة رأسي حتى أخمص قدمي . ومرت بي فترة من الزمن تعرضت فيها إلى ذات الرعب الذي تعرض له تاجر الأغنام وهو في الطائرة .. ثم رحت أسائل نفسي : هل تنبأ عقل تاجر الأغنام الباطن بما لم يتنبأ به عقلي ؟ . وهل كان لرعبه علاقة بشعوره مقدماً بكارثة كادت تقع ؟ ! .

نجاتي صدقي